

السيرة الشعبية ويحدد موضوعه. وفي غياب رؤية علمية للعلوم وعلاقتها ببعضها، تم الانتقال من التاريخ إلى الأدب ومنه إلى الأدب الشعبي بدون تدقيق أو تعميق للنظر، فكانت الحصيلة دراسات تقوم على تلخيص السير، واستخراج بعض موضوعاتها، أو شخصياتها أو أحداثها، مع مقارنة النصوص ببعضها أو استثمار بعض الجوانب بقصد تأويل السيرة تأويلاً يتماشى مع الخلفية المنطلق منها: إثبات مختلف أبعادها التي برزت الاهتمام بها والدفاع عنها.

كانت هذه الممارسات تتم أحياناً تحت اسم التاريخ، أو النقد الفني، أو التذوق والحكم، وماشاكل هذا من المفاهيم العامة وغير الدقيقة الشيء الذي يجعلنا نخلص إلى:

1 - أن السيرة الشعبية «نص» جدير فعلاً بالاهتمام والدراسة لخصوبته وغناه وتنوع سماته وعناصره.

2 - أن الدراسات المنجزة بصدها، رغم ما في بعضها من إشارات ذكية، ومعطيات مهمة، لا يمكنها إلا أن تنتهي إلى الطريق المسدود، لأنها تقوم على أساس ملاءمة اجتماعية محورية، تحول دون انتباهها، أو اهتمامها بجوانب أعمق، لا يمكن الكشف عنها إلا انطلاقاً من ملاءمة علمية تضع نصب عينها البحث عن خصوصية السيرة كنص له طبيعته وخصوصيته، بعيداً عن أي سجل، أو عقدة ثقافية أو حضارية.

5.2. السيرة الشعبية والاستشراق

1.5.2. سبقت الإشارة إلى أن الغربيين سبقوا العرب إلى الاهتمام بالسيرة الشعبية (3.1)، وإلى اكتشافها وترجمتها إلى لغاتهم. وتباينت آراؤهم بصدها، واختلفت وجهات نظرهم في تقييمها. فمنهم من عد بعض السير (سيرة عنتر) لا مثيل لها في كل إبداعات العالم (رينان)، ومنهم من اعتبرها نماذج باهتة لروايات الفروسية في القرون الوسطى (رينو - دوليكولوز). وعلى أساس هذا التباين في تقييمها، اتخذ الباحثون العرب مواقف من بعض الدراسات الاستشراقية، وراحوا يردون على اتهامات أصحابها.